ضحية

بقلم
الآنسة ثريا ملحس

ضم الكون غلالة سوداء حالكة ربطت الى القبة العتمة بأمراس متقطعة لألاءة تتراقص بغمزاتها المعتادة ، فانحنت أغصان الشجر متهالكة وسنى وأشباحها تترنح كلما مر النسيم ، وأما الاقحوان فابتسم عن مفاتيح [البيان] عندما انفلت من النافذة سلسولة نور خافت ، يوقع عليها ألحاناً شجية توقظ همسات الجن . فتعزف بأرجلها الخفيفة على صحون الاقحوان الصفراء ! ...

... وكنت أتشوف من النافذة لانفرج من تزمت أصابني وكبس قهرني ، فارتاحت نفسي الى سجي الليل وتلاشي كل شيء في اللاشيء ، غير ما قرب من البستان ، فصحوت والساعة تدق الواحدة بعد منتصف الليل ، أدرت وجهي الى داخل غرفتي ، فانقبضت نفسي وصرخت صامتة أسائلها ماعساي أقول ؟ ... كيف أحاول أن أدعها تتكلم ؟ ... ما الذي في رأسها يدور ؟ ... هل هي تفكر ؟ وبما ... هل هي صافنة لا تفكر ... ولماذا ؟ ؟ ...

لماذا ؟ ... لماذا لا تصارحني وأنا صديقتها ؟ . . .

لماذا وأنا التي دعوتها الى بيتي لتقضي فرصة ترويح ، بعدما أحسست بتغيير خفاني في نفسها ... انني اعرفها فتاة جميلة طروباً ... انني أعرفها فتاة مثقفة ذكية ... إن تحدثت رانت عليها العزة والأنفة ، وإن نطقت كان في نطقها اتزان ورصانة ... ربي ماذا أقول ؟ ... أ أدعها لأنام ... والنوم دب في أواصلي . واخدرت أطرافي ثقيلة . . أنى لي النوم وعيناي شاخصتان تلاحق حركات صديقتي ! . . فاذا هي تمثال صامت لا يتحرك ولا يرمش ، مضت ساعة وهي لا تتحرك كأنها تستجمع ما تريد أن تحكيه ، فاقتربت منها وهززتها بعنف وقلت : [الساعة الثانية بعد منتصف الليل ! . . .

انهضي يا كريمة .. ألا تريدين النوم؟..] فقهقهت ساخرة ، جفلت وتراجعت الى الوراء ، ولملمت قوتي وحمدت الله أنها تحركت . ولو بانفراج شفتيها مما لا يثير القهقهة ، فاغتنمت الفرصة وجلست أحدثها : اسمعي يا كريمة . .

هل أنت سامعة ؟ ! .. فنظرت الي نظرة تبكيت كأنها تقول : [وأنت أيضاً تشكين في حواسي] ! ، فقالت محتدة : [سأنتقم . . نعم . . سأنتقم] ، فانتفضت واقفة أنظر الى يديها وما تحويها ، فلم أجد إلا وداعة وهدوءاً ، وكنت أحاول جهدي أن أتظاهر بالاطمئنان والهدوء بالرغم من حثيث دقات قلبي وتقلص قدمي . فتأوهت وأنت متراجية] : دعينا نخرج الى الأرض الواسعة . الى الفلاة . انني اكره الغرف الضيقة . أريد أن أمشي . هيا بنا . [فتمطت وهمت فنظرت اليها وأخفيت ، استغرابي وقلت : [كريمة ، ان الناس رقدوا ، والساعة الثانية بعد منتصف الليل و ،] فقطع صوتي استخفاف نظرتها كأنها لم تفهم ما قلت ، ولم تشعر بالوقت .

> ... وامتلأت الدنيا دوياً وتهافتت عليّ الاشباح تطاردني من كل حدب وصوب ورن الوادي صدى ! سانتقم ! . . سانتقم . !

فقالت : [ما هو السبب الذي يمنعنا أن نقول ما نريد أن نقوله ، وان نعمل ما نريد أن نعمله ، مثلا إن أردنا أن نمشي ، أن نمشي وإن أردنا ان نقعد ، ان نقعد ، وإن ،] فكفت عن الكلام فجأة كأن خاطراً ألم بها ، ثم تذكرت وأسرعت بالسؤال وأنا متلجلجة : [هل ، هل احببت ، مثلا ، رجلا ! ، ولم يبا دلك ، أو أن ، اهالك لم ،] فاختنقت الحروف في حلقي . ونظرت اليها وانا جادة أستأني ان تنفرج شفتاها عن قصة غرامية ، فقد أخطأت الزعم عندما انتهرتني بعينين كأنها جمرتان تقولان : [بعيد ، بعيد زعمك ، ان عقلي سيدي ، ولسنا نحن في دنيا قيس وليلى ! ،] فالتويت أسأل نفسي :

[أأنا مجرمة ، أم آثمة ! ؟] ، فأنقذتني كلماتها المبهمة تارة والواضحة أخرى : [أهلي ، ومن هم أهلي ، انهم عبيد العادات ، عبيد التقاليد ، عبيد ، عبيد بكل ما في الكلمة من معنى ! ، هل تصدقين انني لا أعرف أن لي أباً ! وقلما شعرت بالأبوة ، فأنا أقوم بمراسيم وعادات تضع صخوراً بيني وبين والدي ، وهل أستطيع ان أحدث أمي ، وتحدثني كما تفعل الامومة ؟ ! ، أتظنينني اكثر من آلة في أيدي أهلي ، وكم تمنيت ان أحطم تلك الآلة لأرتاح ، وأريح أهلي معي ! ، تعلمت نعم ، تعلمت في كليات رشفنا من ينبوعها الحياة ، الحياة ، الحياة الحية المليئة التي تنساب متفائلة مؤمنة حرة فتهللت للمعرفة وحملتها بين أعطافي علني أفيد منها واستفيد ولما وطئت قدماي داري ، أحسست بقبض شديد وفراغ أليم تهت فيه ، فخلت نفسي يتيمة من البيت الحقيقي الذي يضم أماً وأباً بما فيها من معنى الأمومة والأبوة ، واقصد بالبيت الحقيقي : المكون من أم متعلمة مثقفة ومن أب متعلم مثقف متفاهمين .

أتظنيننا نتوخى خيراً لشرقنا هذا ولأمتنا العربية ، والأم ترسف في دياجير الجهل الفتاك ، والاكاليل المغرية الموبوءة ، ان الرجل يهمه ان يكون والداً فقط في دار لا يهمه منها الا ان يأوي اليها ! ، والمرأة يهمها ان تكون دمية فقط] فارتمت يداها على بعضهما البعض كأنها تطلب الراحة ... فحصرت أنفاسي أريد المزيد فلم أنبس بحرف ، وكنت أخاف أن أقاطعها بسؤال ، لئلا تكف عن الكلام وتصمت طويلا [، ثم أردفت تقول] : نعم وإن الرجل لا يريد المرأة إلا دمية ، آلة في يده ، يرفعها متى شاء ويحطها متى شاء ! ، انني أفكر في علاقتنا — نحن الفتيات المتعلمات — بالرجل أكان أباً أو أخاً ، فأجدنا تحت امرتهم ، ان أرادوا منحوا ! ، وان أرادوا منعوا ! ، ومهما تكن الفتاة متعلمة ، ومهما تصل من الدرجات الراقية العالية ، فهي تنحني لتستعطي سماحاً بالرحيل أو بالعمل الذي يدر على بلادها وعليها خيراً ... فتنمسخ روح الفتاة .

ثم ، أين البيت العربي الحقيقي الذي ننشده في بيت كل عربي ؟ ... ان الشاب المتعلم في بلدتنا يندر ان يعايش المتعلمة انني سمعت أخي المتعلم يقول : [لو أردت ان اتزوج لانتخبت الجميلة من النساء ، وأفضلها الجاهلة ! لا علمها ما أحب ان تعرفه ولو أدى الى التمثيل والتصنع ، لقد مللت المتعلمات المتحذلقات ، المناقشات والمجادلات ، ما أوقحهن] تصوري أنه يعزو الانفتاح على المعرفة وقاحة ! ! ، ثم ماذا نرجوه من الجيل القديم اذا كان الجيل الحديث يلهج بهذا الهراء ، وما ننتظر في المستقبل للجيل الجديد ، لماذا لا يصرخ معنا ذلك الشاب المتعلم لفتح أبواب المدارس الاجبارية على مصراعيها ، لنقتل الأمية ، ونكافح الجهل ، ونعلم الفتاة ما عليها والفتى ما عليه ، ليكونا صالحين للوطن والأمة ، أكان عن طريق تربية صحيحة لنشء جديد ، أم كان عن طريق قلميها وفاسيها .

البيت ، في البيت تتضارب الآراء ، وتقوم المشادات بين القديم والحديث ، ثم بين نوع ثقافة وثقافة ، هذا أميركي الثقافة ، وذلك انجليزي الثقافة ، وذاك فرنسي الثقافة ، وذياك أزهري الثقافة ، وتختلف الدرجات : فيهم الامي ، وفيهم المبتدىء ، وفيهم المتعلم ، فتتعدد المشاجرات ، وتتبلبل الافكار وتتضارب الاخلاق ، فينقلب البيت الى جحيم ، هذا في البيت تلك المساحة الصغيرة ، فكيف حالنا في اقطار أوسع وأمة اكبر ؟ ؟ ! ، البيوت تكون الأمة ، فيكثر في الأمة الاحزاب ، والخيانات ، وتبلبل الآراء ، وعدم الاستقرار والتردد في اعمال الخير ، والكفر بالأرض والأنانية في الافراد ، فتكثر الهجرة هرباً من الفوضى ، والتماساً للحرية فلا نستغرب — والحالة هذه — من حالتنا الحاضرة ، ولا أجدني بحاجة الى تصوير وضعنا ، وكلنا — من له شعور صادق — نحسه ونتألم له ، وما علينا الا الانتظار : إما الانتصار على مآربنا الشخصية ، وتفانينا في سبيل مصلحة الأمة ، أو الانكسار وتغلب مآربنا ، فاندحارنا وذلنا أمام الامم الراقية الكبيرة .

وأما أهلي ، أهلي ، فسأنتقم . جفت صوتها وتمتمت كلمات مبهمة ، كأنها تريد سترها ، فرفعت رأسي ، وأنا

لا أستغرب إنتقالها بي ، فحسست أصابع يدي المشتبكة على بعضها البعض ، فاذا هي ملتوية باردة ، فأسرعت الى شد كل اصبع ليجري الدم فيه ، وانتصبت أمام النافذة ، فاذا النهار قد لاح ، وتنفس ملقياً على الكون نسيماً بارداً منعشاً ، فأملأت من رئتي وانفتحت عيناي على طلوع الشمس وهي ترمي غلالة صفراء شفافة ، دبت في المخلوقات الحياة كأنها اكسيرها فزقزقت العصافير وتركت وكناتها . . . رفرفت الفراشات متنقلة من زهرة الى زهرة . . . وعلا صياح الديكة ، . . فأسرعت أطفيء قنديل الكهرباء ، وقمت واجمة أبحث أبحث عن صديقتي ! . . . ولو لا حذاؤها لظننت انها شبح ألم بي ثم تلاشى . . . فارتعدت خوفاً واندفعت من الباب المفتوح ، فاذا باب الدار مفتوح ، تذكرت أنها تريد النزهة والمشي لا سيما بعد حديثها الطويل العاقل ، فخرجت أجري في اثرها ، رأيت من بعيد شبحاً مترنحاً ، يكاد يهوي على الأرض عيناء ، فأسرعت . . . ولما أحسست بشيء يدب وراءها ، ركضت وهي لا تلتفت يمنة ولا يسرة ، ناديتها باسمها [كريمة ... كريمة ... كريمة . . .] فلم تع . . . ثم جلست على حجر لاستريح ، وأنا أضع يدي على صدري أهدىء روعي ، وأخفف دقات قلبي وتنفسي السريعين ، وقلت : أعرف الآن عقدها النفسية . . فاذا حكيت لأهلها ما حكت لي علهم يساعدونها ويساعدونني . . . ولكن ربما كذبتني أو رمت جملة من جملها الباردة ، فتحطم كل ما أريد أن أفعل ... لكن ... يجب أن أكلم أمها على حدة ، وربما والدها . . والافضل ان يراها طبيب نفساني . . فأسرعت في طريق أقرب الى دارها مما انتهجت ، فوصلت قبلها ، وانتحيت اراقبها ، وعندما اقتربت من الباب ، انتفضت هاربة تزيد خطاها كأنها تقول : « لا أريد . . أمقت البيت ... أخاف ... فوضى ... » فهرولت الى والدتها والدمعة تجول في عيني ، وطلبت منها مساعدتي ، فنظرت اليّ نظرة مبهمة وقد تصلبت عضلات وجهها ، ونضب من عروقها الحياة ، ظننت انني توصلت الى شيء في نفس صديقتي فاذا أنا أجهل الشيء الكثير ، لعلها كتمت ... فأوقفت شرود أفكاري ونظرت الى الوالدة مرة أخرى مستغربة ، فقالت : سترجع وحدها ... دعيها ! . . . سترجع . . . هذه نتيجة من تعلم من البنات ... وأكثر منه . . انظري كيف نحن قانعات ، نرضى بكل ما نتلقاه من الرجل . . . والحمد لله لا نعرف القراءة ولا الكتابة الا اذا اضطررنا . . . تعودنا في زمننا — سقى الله تلك الايام — أن يكون الرجل سيداً ، حاكماً ، آمراً ، ناهياً ، و . . . فانصعت مشمئزة ، ولويت عنقي ، لانها لم تزودني بما يفيد ، بل زادتني غموضاً وحيرة ، فتركتها ، وتمنيت لو لم أتكلم مع الوالدة ولم أسمعها تهذي بكلمات لم أوضحها ولو حدثتها عن الطرق التربوية الصحيحة لطردتني وأمطرتني شتماً واعراضاً ! . . . ذهبت ضحية . . ضحية الجهل المدقع . . وتمنيت لو كان في حوزتي قنبلة ذرية لقلت علي وعلى أمتي . . . مللنا التسويف . . . مللنا الزحف على بطوننا . . مللنا الميوعة في كل مظهر من مظاهرنا نريد نهضة مخلصة جامعة ، شاملة ، لنفهم ونتذوق الحرية المنتجة لنتغنى بها بلا تصنع ، كأنها جزء منا .

وصلت الى غرفتي وقد براني الهون ، فارتميت أحاول الفرار من نفسي المتحدثة المتعبة ، انتظر اليوم الطالع لأرى صديقتي في دارها ، وفي اليوم الثاني ، التقيت بصديقتي في غرفة الجلوس ، فناديتها باسمها مرحبة ، واقتربت منها باسمة ، ومددت يدي مصافحة ، فنظرت الى الباب بوجه شاحب كأنها تريد الفرار ، لاتلتفت إلي ولم تمتد يدها لمصافحتي ! . . . . لم تعرفني ! . . . نعم ما عرفتني ! . . . ودعتني بحديثها الطويل فصمتت الى الأبد . . . هل وعت ما قالت ؟؟ فرفعت أصابعي لأتلقى دموعي ، وخرجت لا ألوي على شيء . احفر الارض بقدمي كأن لي وتراً ، فانبعث صوتها الرزين الى اذني ، وامتلأت الدنيا دوياً ، وتهافتت علي الاشباح تطاردني من كل حدب وصوب ، ورن الوادي صدى : « سأنتقم . سأنتقم . » فوضعت كفي على أذني واغمضت عيني ، اطرد الدوي والاشباح ، فكانا يخترقان كفي وعيني ، ويملآن رأسي حزناً وأسى . شعرت بدوار ، فاتكأت على حائط بيت . . واجبت الصدى لأشبعه : « نعم انتقمت . . . انتقمت من نفسك ! » . . فأجاب الوادي اتي : « كريمة . . . كريمة مجنونة ! . . »

ثريا ملحس